

من مآسي القرد والقفور

للكثور: زكي المحاسني

(دمشق)

(السيد الكامبياذور) (*)

« السيد يقرب منا نحن العرب ، فاسمه من عندنا ، وحياته امتزجت بتاريخنا في الاندلس ، « هورودريك » روي دياز البيفاري ، الملقب بالسيد الكامبياذور وسماه عرب الاندلس « القنبيطور » و « الكنيطور » . احاط بأخباره ضباب كان ينكشف حيناً فيبدو « السيد » ضاحياً في المعركة متألقاً بالشعر ، وحيناً يستقر مثل الخيال .

مررت على اخباره في مصنفات الاندلس فاذا العرب ينظرون اليه نظرة شذراء مقبلة ، فلقد حملهم هو عليها بما صنع في امصارهم ، اذ خلف الدمار والتقتيل . وراه مؤرخو تومه اعطية مجد وصاعقة حرب فاحاطوه بالتهاول ونسجوا عليه التمجيد .

يبدأ ظهوره في اسبانيا ايام بني هود ، وكانوا اصحاب حاضرتهم سرقسطة « Saragosse » كان ثلجاً مغواراً تحدر من دماء اسبانية وتمرس بالحرب والقتال ،

قربه بنو هود اليهم لينضم الي مواكبهم في الحرب ، وكانوا يحاربون به جيرانهم العرب في جلاذ ذلك العهد من ملوك الطوائف في الاندلس ، حين ضعف سلطان المسلمين ، وهب كل متسلط فيهم ينصب نفسه اميراً ولو في رقعة الصغيرة . ويكون مملكة وجيشاً في بلد او بلدين ، معتصماً بالحصون . وقد دب التخالف والنزاع بين هؤلاء الامراء ، فكانوا في عدوان مستديم يثب فيهم مدع على عرض او يقتل او يبنذ او يشرذ . وتاريخهم في ذلك التناذب والخلاف صفحات سود لم يشهد الزمن لها مثيلاً في سير الامم . فان الاسبان كانوا يترصبون بهم المتالف . وضعفاؤهم يستعينون بملوك الاسبان . وكان هؤلاء يفرطون في النكايات بين العرب ليخلو لهم وجه الظفر ، وليستردوا منهم بلادهم التي احتلوها منذ اجتاز اليهم الفاتحان العربيان طارق بن زياد وموسى بن نصير ، وفي غمرات ذلك التخالف والتعادي بين ملوك الطوائف قام « السيد الكنبيدور » بلعبته الكبرى ، فاذا هو يصبح في

(*) شرح ليفي بروفنسال معنى كلمة (Campeador) في اللغة الاسبانية القديمة وهي اللغة الرومانسكية اللاتينية (Champion) ومعناها في العربية المعروفة بالاندلس يومئذ هو (صاحب الفحص) (Dominus Campi) وقد اعطى بروفنسال كلمة الفحص معناها القديم اذ كانت تدل على الحقول والهروج ، فيكون معناها الاصيل (سيد المروج) وقد وجدت معنى الفحص عند الفيروز آبادي — وهو يعنى — بالاسماء خاصة — (الفحص كل موضع للسكن ومواضع في الغرب — يريد الاندلس — وهي فحص طليطلة واشبيلية . اما المعاجم الفرنجية فأكثرها على ان معنى الكنبيدور ، البطل وقد رسم اسمه لسان الدين ابن الخطيب الكنيطور ورسمه المقرئ القنبيطور . وكلمة السيد « علم اندلسي اضافى لا يزال معروفاً الى اليوم في شمال افريقيا وهو (سيدي) وبالاسبانية Mio Cid ويلفظ رودريك بالاسبانية « رودريك » . Rodriguez

النصف الثاني للقرن الهجري احد أبطال الحروب الإسلامية الإسبانية ، فيشكل جيشا من الاسبان ياتمر بأمره ، وله اتباع ومندوبون ودار قيادة في سرقسطة لحماية ملكها من غوائل الجيران وكان صاحب سرقسطة في اواخر القرن الخامس الهجري « يوسف بن أحمد بن هود » (1) ومن صلته مع الفونسو السادس ملك قشتالة وجعل يعاهده ويهاديه وكان « السيد الكتبيدور » احد رجالات جيشه ، فأهداه الى بني هود يذود عنهم ، وكانت سرقسطة التي خدم « السيد » ملوكها حضارة كبرى للعرب في الشمال تزخر هي وبلنسية (2) بهم ، تأمت فيها حضارة عربية أخذت تراثها عن الشرق من دارات أمية ومرابح بغداد ، واكتست أنواع الحضارة الإسبانية . لكن بني هود الذين سكنوا الى الفونسو السادس والى « رودريك » (3) لم يطل بهم هذا السكون ، فلقد كانت أطباع العاهل الاسباني بعيدة في استرداد أرضه ، فكان أن تنكر « السيد » لبني هود وطمع بمن جاورهم فتخطى الى بلنسية التي كانت تنعم بالهدوء وترمي بأعينها الخائفة مثل طير يرصده الصياد .

وكانت الإندلس منذ استهلال القرن الخامس للهجرة قد أحست ببیدانها وأوشك زلزالها السياسي أن يظلمها زمنه ، وكان انحلالها مثل خدر عرا الأعصاب ثم دب في الأطراف ، حتى كانت الفزعة الكبرى التي فزع بها الإندلسيون الى ملوك الشمال الأفريقي مستجدين ، وأرسلوا القصائد النواحة المرنة والوفود الدائمة المحزونة بابتهالاتها حتى استجاب « يوسف بن تاشفين » ملك مراکش ، لا استجابة المغيث الحادب وإنما عون الطامع المتربص (كذا) . وقد تولى طلب الغياث باسم ملوك الطوائف « المعتمد بن عباد » وخاضا الحرب متكاتفين فدحرا الجيوش الإسبانية التي كان يقودها ثلاثة ملوك فيهم الفونسو السادس ملك آراغون ، وأتيح للعرب يومئذ في الإندلس بتلك الهبة من كبواتهم أن يؤخروا مصيرهم الدامي أربعة قرون . ثم انقلب ابن تاشفين على المعتمد واستولى على ما فضل من يد الاسبان في دارات الإندلس الرمية وفي تلك البارحة من نوازل الزمن هب « السيد الكتبيدور » فغزا بلنسية شر غزوة .

لقد حاصرها عشرين شهرا ، ثم دخلها صلحا ففر منها القادر بالله بن ذي النون وكان فيها لاجئا وكان يحبها قاضيا « أبو المطرف الجحاف » بعد أن أقره عليها ابن تاشفين ولم يكن « السيد » طامعا في حيازة بلنسية ليكون أميرها ، فقد كان بطوقه ذلك ، وإنما طمع بالكنز الثمين الذي تركه فيها القادر بالله عند القاضي ابن الجحاف — كما يروي المؤرخون الاسبان والفرنسيون اذ يقول قائلهم : ان القادر بالله « اللاجئ » الى بلنسية كان يملك من الإلطف والتحف ما يساوي كنزا من الكنوز . وهو تراث جواهر وعقود كانت لهارون الرشيد وهبها لزوجته الفضلى زبيدة . ولما حدثت الحرب بين ابنه بعده الامين والمأمون وقتل الامين وفي حوزته تلك الجواهر من صوب أمه ، وقعت في أيدي النهاب ، وصار أمرها الى تجار حملوها الى المغرب ، حتى صارت الى الخليفة الأموي « عبد الرحمن الثاني » ملك قرطبة (4) وكان يجد هؤلاء الملوك في الاحتواء عليها — كما أرى من خلال تحليلي النفسي — شعورا غريبا فيه كثير من الفرحة والشماتة . فقد عاشوا في المغرب يتلهفون على المشرق منذ أطاح بهم اهلوه وراء البحار ونجا منهم الأمويون الذين أقاموا على الشواطئ الغربية مملكة للعرب في الإندلس وكان بين تلك الجواهر عقد من الفيروز المندور كانت تلبسه السيدة زبيدة وتتيه به بين نساء الخليفة ببغداد .

فلما اشتد الحصار على بلنسية فر منها القادر بالله يحيى حفيد المأمون بن ذي النون (5) مستخفيا بلباس امرأة ، فلقق به من عرفه فقتله بأمر ابن الجحاف وخلا الجو لقاضي بلنسية ابن الجحاف — كما يقول نيكاتور بيكيه — فأخفى الكنز الذي كان في حوزته . وحين فك « السيد » الحصار عن بلنسية ودخلها مصالحا ، اتخذ سبيل الخداع لدى القاضي ، وترصد غرة منه للوثوب عليه . وكان « السيد » أقدر من أن يحاط به ، فملك زمام الحكم في بلنسية ، وأحضر القاضي السي مجلس العدول والشهادة وأحضر وجوه الاسبان من أعوانه ، وطالب القاضي بكنز القادر بالله . فأنكره . فاشهد عليه « السيد » أنه ان وجدده ليحرقته بالنار ، فرضى القاضي ابن الجحاف بهذا الشرط الوبيل . ويذكر

- 1) فنج الطيب من غصن الإندلس الرطيب للمقري ، طبعة السعادة بمصر سنة 1949 ج 6 ص 198 .
- 2) Valence
- 3) سمي عرب الإندلس الفونس « اذ فونش » ورودريك « لذريق » .
- 4) هذه الرواية الخاصة بكنز زبيدة تظهر جلية عند (نيكاتور بيكيه) في كتابه (اسبانيا العرب) « L'Espagne des Maures » طبع الناشر « بوكار » بباريس سنة 1946 ص 134 .
- 5) يسميه لسان الدين بن الخطيب (ذنون) ويسميه ابن بسام (ذا النون) .

وصار به عنته الى أن استقل بلنسية وضرب باسمه عملتها فلم يك تابعا لحكومة الاسيان ولا مظاهرا للمسلمين .

ولم يجد العرب بعد هذه النكبة الاندلسية الا بكاء شعرائهم عليهم ، فكانت المراثي عزاءهم ومنها قول ابن خفاجة مخاطبا بلنسية :

عاشت بساحتك الظبا يا دار
ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد في جنانك ناظر
طال اعتبار فيك واستعمار
لقد كانت حياة « السيد » مليوكة بالمعارك ،
وكان شعاره قوله : « رودريك يخسر اسبانيا .
ورودريك يستردها » ولم يهنأ « السيد » باستيلائه على بلنسية طويلا ، فقد انهكه المرض وباتت نهايته قريبة .
لقد ارسى اواخر حياته جيشا لحرب المرابطين فهزم وتشتت شمله وانكسر باجمعه فاحدثت له هذه النازلة تهرأ جسيما ، فمات سنة 1099 للميلاد الموافقة لعام 492 للهجرة (8) .

وحاولت زوجته (شيمين) قريبة الفونس السادس ان تحكم بلنسية ، لكنها اخفقت قبل انقضاء عامين على موت زوجها « السيد » فتركت بلنسية وارادت ان تحمل معها جثة « السيد » ثم بدا لها ان تحرقها ، وخرجت من بلنسية لا تلوي على شيء ، يعينها ملك اسبانيا ، وعيناها تفيضان بالحسرات عند نهر الوادي الكبير .

* * *

ان اخبار « السيد » الكنبيدور « قد استقيت اول امرها من التاريخ اللاتيني قبل عام 1233 من كتابات (Des Gesta Roderici Campidorti) وراحت حياة « السيد » وقصته خبرا مشاعرا في اغاني الشعب الاسباني المسماة Romancero وانسكبت خلال السنين المتعاقبة ، في روح ملحمة شعبية سميت « قصيدة السيد » (Cantate del Cid) وقد وضع فيها « رامون ميناندير بيدال » كتابا منفردا درس فيه

مؤرخو العرب واخصهم لسان الدين بن الخطيب (6) ان القاضي احتوى مال القادر بالله . لكن فكتور بيكيه يدين ابن الجحاف باخفائه ، وبعد حين سعى الى « السيد » « الكنبيدور » كما يقول هذا المؤرخ ، احد عبيد القاضي فدلله على مكان الجواهر ، فاستخرجها « السيد » وقدم القاضي لمشهد الانتقام .

ودنا يوم القاضي ابي المطرف بن الجحاف فشهدت بلنسية يوما لا ينساه الدهر ، فقد حفر أعوان « الكنبيدور » حفرة في ساحة عامة انزلوا فيها القاضي الى نصفه ، ورسوا عليه التراب ، وحلقوه من حوله بالحطب الجزل والقش الهشيم .

وامر به « السيد » فأضرمت عليه النار ، وجعلت تلفحه ، فكان من القاضي ثبات الرسل والصالحين كان يصرخ (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم جعل القاضي الشهيد — كما يروي لسان الدين ابن الخطيب والمقري — (7) يجذب العيدان والدفوف ليقربها الى جسده بيديه الكليلتين ليسارع في احراق نفسه تخلصا من العذاب . ولما ذاب جسده ، وصعدت روحه الى بارئها تشكو ظلم الانسان للانسان ، هب اهل بلنسية مستصرخين لهذا الهول . ثم ان « السيد » هم باحراق اولاد القاضي الصغار فمكض اليه المسلمون والنصارى معا يعطفون قلبه عليهم حتى تركهم . ثم قدم العلماء والاعيان فأحرقهم « السيد » جميعا وأخذ سائر اهل بلنسية بالعذاب . وكان ممن أحرقتوا يومذاك الشاعر ابو جعفر البتي .

يقول ابن بسام في الذخيرة ان اهل بلنسية كانوا يومئذ في غشاوة من الموت . ويصفهم لسان الدين بأن صراخهم كان يتجاوب امام المحنة . وقد حدد فيكتور بيكيه هذه المحنة بيوم 25 يونيو (حزيران 1094 للميلاد) .

كذلك عاش « السيد الكنبيدور » عيشة محارب سالب للعرب ومناصر لهم ، ثم خاذل لمعهدهم وشاقه ان يعيد في تاريخ الطغاة سيرة (نيرون) محرق روما .

(6) و (7) « اعمال الاعلام فيمن بويح قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » نشر بروفنسال الذي اعطاه اسم تاريخ اسبانيا الاسلامي ، طبع دار المكشوف ببيروت سنة 1956 ص 182 ، 203 . ونفح الطيب الطبعة السابقة ص 199 . ولم يفصل القول في أخذ بلنسية واهلاكها « عبد الملك بن سعيد الاندلسي في كتابه (المغرب في حلى المغرب) وقد نشر مخطوطه القسم الخاص بالاندلس وحقته صديقنا الدكتور شوقي ضيف استاذ الادب العربي بجامعة القاهرة طبع دار المعارف بمصر سنة 1953 ج 2 ص 300 .

(8) كان مولده عام 1030 للميلاد .

تاريخها الشعبي وألف بين أبياتها . وقد رويت في ثلاثة أناشيد ، كل منها يسمى Cantor . وقد نظّر الدكتور بيدال ما في هذه الأناشيد من عناصر روح « السيد » وشواهد التاريخ ، وذكر الترجمات الحرفية لها من اللفظ الإسباني القديم الى اللغة المعاصرة ؛ وتقرى ما فيها من أسباب الغناء والرقص الشعبي والحماسي وكيف تطلدت في الأدب الفرنسي وما احاط باناشيدها من الإبهام وما لها من القيمة في الفن والتاريخ (9) .

لقد زوق (رامون بيدال) هذه القصيدة الشعبية ونسج عليها أدبا رغيعا عاليا رغبها الى مصاف الملحم الإسطورية . فهي اليوم ترداد كل لسان مثقف إسبانيا . تبعث في النفوس ذكرى حروب « السيد » العتيقة ومغامراته في الانتقام والغرام . وكانت هذه الملحمة لا تخلو ، كما يقول عميد الأدب الإسباني نفسه من مقاطع ظهر فيها المسلمون أعداء لابد من قتالهم (10) .

لقد أوحى حوادث الحب في هذه الأغنية الشعبية التي كانت ملحمة الإسبان مسرحيتين شعريتين وضع اولاهما الشاعر الإسباني « غيوم دو كاسترو » (Guilhelm de Castro) سنة 1618 فهد السبيل بعمله الأدبي للشاعر « كورنيي » العظيم 1636 الذي أعطى ادب أمته أعلى منحة مسرحية في الشعر الكلاسيكي . وكان القدر سخره لتخليد « السيد » بمسرحيته الفاتحة . وقد احتفظ كورنيي بالطابع القديم لسيرة « السيد » ولزم الأسماء التي وردت في ملحمة الإسبانية وفي مسرحية دو كاسترو ، لكنه أدخل على الحوادث

أسبابا وتنوعا ومناجات اقتضاها الفن المسرحي الكلاسيكي ، وقد أدار حوادث مسرحيته على البطلين « رودريك » الذي هو « السيد الكنديور » و « شيمين Chimène » محبوبته . وقد أساء والد شيمين وهو « دون غوميس » الى والد السيد وهو « دون دييخ » إذ صفعه على وجهه وكانا عظيمين اقطاعيين . فلم يستطع الشيخ دون دييخ لوهن جسمه أن يرد الصفعة ، فندب ابنه « السيد » لينقم له من ضاربه « الكونت » فتقدم رودريك بجدوه الشرف الى مبارزة دون غوميس والد محبوبته ، فقتله .

وهنا يهب أعصار الرواية ، فتقلب « شيمين » على « السيد » وتشكوه الى الملك ليقتله بقتل أبيها منكرا حبا « للسيد » وكانت تراه قبل فعلته الآثمة ، منية الحياة وأمل الروح . ولم يرهب رودريك فقد تقدم اليها بسيفه وهو يقطر بدم أبيها طالبا أن تأخذ هي بيدها الثار بقتله ، معلنا انه قتل أباه ليمسح عن مجد أبيه تلك الصفة المهينة ، وليكون في نظرها جديرا بالمحبة المنيعة .

وتتجاوز على مسرحية « السيد » لكورنيي خمسة فصول عنيفة . من أرق ما جاء فيها هذه النجوى المحزنة من حوار بين « السيد » وشيمين .

— لم خلف لنا آباؤنا آلاما ودموعا ؟ .

— من كان يتصور ما نزل بنا ، يا رودريك ؟ .

— من يمر بخاطره مصابنا ، يا شيمين ؟

ولا يجد الصفاء سبيلا الى القليلين المتحابين ، فيبرز الى المسرح منافس جديد هو « دون سانشو »

(9) La Epopa del Cid طبعة « كالب » بمدريد سنة 1951 ص 99 .

(10) افتتحت مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد عددها الاول سنة 1953 بمقال ضاف عن (إسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام) كتبه لها خاصة كتحية إسبانية للدراسات المصرية رامون بيدال « اظهر فيه تأثير الشعر العربي على الشعر الإسباني وورد فيه قوله الجميل : (لا تعجب ان يؤثر الشعر العربي في شعر الإسبان بل اعجب أن لا يكون قد أثر) ص 19 .

وفيه كانت بين الدكتور رامون مينانديز بيدال وبينني مواسلات « منذ أكثر من عشر سنين وقد كتب مقالا » عني كما كتبت عنه وجاء في كتبه كلمة . (عصر السيد) مكررة ومعادة فاقترحت عليه لها للسيد من مآثم — ان يسمي عصره بعصر المعتد بن عباد « فقبل ذلك ووعد ببدال تلك التسمية في طبعات كتبه الآتية — وله من الكتب ما أرى على المائة .

وفي عام 1960 بلغ من العمر الخامسة والتسعين فاحتفت بذكرى هذه السنين الغالية إسبانيا بأجمعها وأمريكا اللاتينية وسفارة الجمهورية العربية السورية بمدريد والمركز الثقافي العربي بمدريد وثناء المادبة التي اقامتها السفارة السورية للرئيس العظيم الدكتور رامون مينانديز بيدال لهذه الذكرى وقف محييا وأخرج من جيبه قصيدتي التي حبيته بها وقد نشرت بمجلة الاديب البيروتية آنذ وطلب الى السفير الاديب أن يتلوها بالعربية أمام الحضور وقد كتب لي السيد السفير أن شعورا شاع في نفسه مالاها اعتزازا حين عرف أن أحدا بناء قومه وهو المحاسني صديق لهذا الاديب العظيم .

حيث تصطرع المحبة والبغضاء ويتقاتل الغرام مع المطامع ، ويسود الشرف والاباء والواجب على كل شيء .

ودخلت في تعابير الادب العالمي عبارات من هذه المسرحية التي كفلت لشاعرها الخلود فارقتى كلامها في بعض روائعه الى درجة القول المأثور والحكم البالغة . ومن أجمله قول « السيد رودريك وهو يبارز والد حبيبته دون غوميس :

— انتي فتى حقا ، ولكن النفوس الاصيلية ، لا تنتظر من اقدارها عدد السنين ..

ولقد كنت امرغ من موضوع « السيد الكامبيانور » وتبالة تصوري ابو الطيب المتنبي شاعرنا الاعظم الخالد البطل الذي كان يقول قبل « السيد » :

فما الحدائة عن حلم بماتعة
تد يوجد الحلم في الشبان والشيب

خاطبا لشيمين . فيتصدى له رودريك ، يدفعه عن حبيبته بالمبارزة ، فيحكم الملك الاسباني بين الرجلين ان من قتل الآخر فله العروس شيمين .

ثم لا تلبث شيمين ان ترى بعد المبارزة ، وهي والهة مراعاة ، دون سانشو ماثلا معافى . فتكاد تصرع وتهجم عليه ، ضاربة على صدره بيديها ، لاعنة ، لانه قتل حبيبها الاوحد . وفي ثورة قلبها المفجوع تعلن انها تحب « السيد » على الرغم مما ائمت يداه . واذا بالسيد رودريك يبرز لها من وراء سارية وهو حي سليم .

لكن دموع شيمين لا تجف على ابيها فيمهلها « فيرناندو » ملك كاستيليا (11) سنة قبل ان تزف الى « السيد » حتى يتاح لدموعها الغالية ان تجف ..

وقد صور النقاد الغربيون مسرحية كورنيي (انها نشيد الرحيل الى عهد عظيم حافل ببطولات الادب والتاريخ (12) وكانت فجر العهد التحليلي لنوازع النفوس في الشعر والنثر والقصة والروايات المسرحية

(11) Castille وسماها العرب قشتالة .

(12) طبعة هاشيت بباريس سنة 1935 ص 192 (Corneille, Le Cid) وما بعدها في آراء النقاد
بمسرحية « السيد » لكورني .

